«حكيم»..
الفرفشة في شريط

(١)

في مرحلة امتدّت من مطلع الثمانينيات وحتى بداية التسعينيات كان المشهد في أي من ميادين القاهرة يبدو كلوحة عبثية، موقف أوتوبيس تتزاحم فيه الأجساد؛ بحثًا عن فرصة لوضع قدم داخل علبة صفيح، وأصوات ندءات الباعة الجائلين تلعب دور الموسيقى التصويرية، ليغطي عليها بين حين وآخر صوت آخر قادم من سماعة ستيريو ضخمة وضعها بائع فوق فرشة شرائط كاست مقلدة (مضروبة).

دون قصد تحولت مواقف الأوتوبيس والميكروباص إلى سوق رسمية لأشرطة الكاسيت «المضروبة»، كانت النسخة تباع بجنيهين في فترة تسيّدت خلالها الأغنية الشعبية، بضاعة رخيصة وغناء موجّه لفئة تحولت بفعل فاعل إلى أغلبية مُطلقة، نفس الجمهور الذي نصَّب عادل إمام بطلًا شعبيًا في السينما، تذوق وبنفس راضية أصوات مثل «عبده الإسكندراني»، و«حمدي باتشان» صاحب أسطورة «الأساتوك»، إلى أن فرض حسن الأسمر اسمه بقوة على الساحة بألبومه الشهير «توهان» ثم أيقونته المعروفة «كتاب حياتي»، قدّم «الأسمر» صورة مختلفة للمطرب الشعبي الذي

يرتدي نظارة شمسية سوداء على بوستر ألبومه، مخفيًا وحمة فوق جبينه أصبحت ماركة مسجلة لصاحبها فيما بعد، في حين انهار عرش «عدوية» ملك الأغنية الشعبية القادم من السبعينيات، وذلك بالتزامن مع الحادث الشهير الذي تعرض له في نهاية الثمانينيات.

تربّع الموال والقصة على عرش صناعة هذا الفن، وبايعه الوافدون من الأقاليم والقاهريون بحماس مُدهش. فبرز اسم عبده الإسكندراني ويوسف شتا، حوّل الاثنان الأغنية الشعبية لموال فلاحي مُجرّد.

لم أحب الأغنية الشعبية المنتمية لتلك المرحلة على الإطلاق، كثيرون من أبناء جيلي عزفوا عن سماعها باعتبارها موسيقى موجهة لفئة الصنايعية وسائقي الميكروباص شكلًا ومضمونًا. ارتبطت الأغنية الشعبية في ذهني بمشهد غرزة على الطريق الزراعي يلتقي فيها سائقو النقل تحت رعاية معلمة تشبه «هيام طعمة» في أفلام المقاولات.

كان هناك فجوة واضحة بين الأغنية الشعبية المصرية التي قدّمها «محمد رشدي» و«العزبي»، ثم منحها «عدوية» قدرًا من الجدل والجرأة، وبين حالة الندب والنواح والموعظة الموجهة للحشاشين والمساطيل باعتبارهم جمهورًا مستهدفًا من مطربي تلك المرحلة. ثمة افتقاد واضح للبهجة في الكلمة واللحن، وغياب للوجه المقبول لدى جمهور لن يقبل بسماع مكوجي رجل ببدلة مزركشة، كان لا بد من حلّ تصيغه دماغ ناشفة تفرض ذوقًا جديدًا، ولكن أحدًا لم يتوقع أن يكون هذا الحل صعيدي.

(٢)

طفلة صغيرة اسمها «بسمة» كانت سببًا في تغيير شكل الأغنية الشعبية المصرية.. ليست مبالغة. في صيف ١٩٨٩ كانت «بسمة» برفقة والدها في أحد الاستوديوهات لتشارك في تسجيل إعلان ألبان، والد «بسمة» لديه مشكلة حقيقية تتمثل في شقيقه الأصغر الباحث عن حلم الغناء، رغم رفض عائلته التي تعدّ أحد أكبر عائلات مغاغة بالمنيا، بل إن والده عمدة مغاغة هدد الشقيق الأصغر بالطرد من المنزل إذا استمر في الغناء وراء «العوالم والغوازي» في أفراح القرى والنجوع، كان لا بد من طريقة؛ لإقناعه بالتخلي عن الفكرة، ولن يجد والد «بسمة» أفضل من حميد الشاعري الواقف أمامه الآن؛ كي يطلب منه تولي تلك المهمة.

«أستاذ حميد شقيقي موهوم بالغناء، صوته وحش، ووالدي تعب من محاولات إثنائه عن الفكرة، العائلة كلها ترفض ما يفعله، هل من الممكن أن تسمع صوته وتقنعه يفضها سيرة؟».

ردّ «حميد»: «قوله يعدّي عليّ يوم الجمعة الساعة ٥ في ستوديو أمريكانا».

في تمام الخامسة مساءً دخل ستوديو أمريكانا شاب يدعى «عبد الحكيم»، عرّف «حميد» ورفاقه بنفسه، وبين الحضور جلس الشاعر عادل عمر، والمخرج والمنتج طارق الكاشف، طلب «حميد» من «عبد الحكيم» الغناء، فقدّم موال لـ«عدوية» خطف سماع الحضور، تحمّس «حميد» وبدأ يعزف على الأورج، و«عبد الحكيم» يغني لعبد الغني السيد، ثم عبده

السروجي، والنتيجة تصفيق حاد من الحضور، وإعجاب مبالغ فيه بهذا الشاب الصعيدي الموهوب الذي قرّر «حميد» فيما بعد أن يجري تعديلًا بسيطًا على الاسم ليصبح سهلًا في التداول.

«أنت في حاجة لاسم فني، أنا اسمي «عبد الحميد»، فأصبحت «حميد»، إذن فليكن اسمك الجديد «حكيم»، ما رأيك؟

يحكي «حكيم» عن تلك الأيام بعد سنوات النجاح والشهرة: «قال لي حميد منهيًا هذا اللقاء: تعالَ يوم الثلاثاء القادم إلى ستوديو إم ساوند، ذهبت أيضًا في الموعد، وكان في انتظاري وقتها هو وفايز عزيز مدير إنتاج شركة سونار، ومهندس الصوت أحمد عزت، لا أذكر أنني قابلته بعدها، ولكنها كانت أول مرة أقف فيها أمام ميكروفون الاستوديو، غنّيت كما لم أغنّ من قبل، مواويل لعدوية وغيره، وسجّل عزت صوتي، واحتفظ به حميد كنواة لمشروع جديد يقنع به المنتجين».

كان صوت «حكيم» بداية لمشروع جديد ضمن مشاريع حميد الشاعري لتغيير شكل الأغنية، قبلها بعام تقريبًا بدأ «حميد» تجربته بتقديم أصوات مثل إيهاب توفيق، ومصطفى قمر، مع استمرار تعاونه مع عمرو دياب وعلاء عبد الخالق، تغيّر شكل الأغنية الرومانسية وبدأت تجربة «موسيقى الجيل» تترسخ في مسامع الجمهور، وحان الوقت لتصل تلك الثورة للأغنية الشعبية.

يقول «حميد»: «الأغنية الشعبية كانت بعيدة كل البعد عن

التطـور الموسـيقي في العـالم، لم تعـرف الأرتـام ولا الهارمـوني ولا التوزيـع الموسـيقي عمومًـا بشـكله الحديـث، رغـم أن الأغنيـة الشـعبية رحبـة تتسـع لـكل ذلـك».

اسـتمرت مرحلـة الإعـداد عامـين تقريبًـا، ظهـر بعدهـا الألبوم الأول لـ«حكيـم» حامـلًا اسـم «نظـرة»، وكانـت أغنيـة «بينـي وبينـك» دخـول مفاجـئ لصـوت يغـير ملامـح الأغنيـة الشـعبية، تـوارى حسـن الأسـمر وأعمـدة مدرسـة «النكـد» الشـعبي أمـام مطـرب تتـوالى طبعـات شريطـه واحـدة تلـو الأخـرى، وكأننـا أمـام خـط إنتـاج في مصنـع لتعبئـة «الفرفشـة» في «قزايـز»، أصبـح «حكيـم» أيقونـة للفرحـة والبهجـة، وبـدأ شـباب الجامعـات يسـمعون «حكيـم» الـذي ظهـر كفقـرة في حفـلات الجامعـات مـع حميـد وعـلاء عبـد الخالـق وعـلي حميـدة ومصطفـى قمـر وإيهـاب توفيـق وحنـان وآخريـن...

سـمعنا لأول مـرة مصطلـح الأغنيـة الشـعبي «الشـيك»، توضيحًـا لأناقـة في الشـكل -شـكل المطـرب- وكذلـك في المضمـون، حتـى إن كلـمات أمـل الطائـر وألحـان حسـن إش إش التـي سـيطرت عـلى الألبـوم الأول كانـت تخاطـب كل الطبقـات؛ انطلاقًـا مـن نظريـة تقـول: إن داخـل كل مواطـن مـصري، كائـن شـعبي يظهـر وقـت الفرفشـة».

(٣)

رَكِـب «حكيـم» السـوق بلغتـه، وفي عـام ١٩٩٤ صـدر ألبومـه الثـاني «نـار» الـذي قـدّم جرعـة مكثفـة مـن الأغـاني الراقصـة، واسـتعرض حميد الشـاعري عضلاتـه الموسـيقية في التوزيـع، مقدمًا

إيقاعًا جديدًا يحمل براءة اختراعه حتى الآن وهو «المقسوم»، نجاح صاخب يقول عنه «حكيم»: ألبوم نار كان بالنسبة لي تأكيدًا لنجاح مشروعي، أصبحت نجمًا حقيقيًا بعده، الناس كانت تسلّم علي في الشوارع، كنت أحيي في الليلة الواحدة ثلاثة أفراح، غير الغناء يوميًا في الملاهي الليلية والكازينوهات، وعرفت معه السفر إلى أوروبا والغناء للجاليات العربية هناك، غنّيت في ألمانيا وهولندا وإيطاليا، وطرت إلى أمريكا، كان الناس مهووسون بهذا اللون، وكان اسمي يتردد من دولة لأخرى، ولقبوني بأسد النيل، لا أعرف سبب اللقب، ولكن متعهد حفلات لبناني قال لي: أنت صوتك قوي كزئير الأسد، هذا لقبك الأنسب».

بعد عرض كليب «نار» في التلفزيون، ثار بعض شيوخ الأزهر، واتهموا «حكيم» بالترويج لعبادة النار، ليس لسبب منطقي سوى ظهور بعض الشباب والفتيات في الكليب، وهم يرقصون حول النار بطريقة ساذجة أشبه بطقوس الهنود الحمر، تم منع الكليب لفترة، إلا أن «حكيم» تجاوز الأزمة بذكاء فصوّر أغنية «الحق عليه»، وظهر خلالها فوق باراشوت يطوف الأقصر ويبرز معالمها، فأذاع التلفزيون الكليب بكثافة، خاصة على القناة الفضائية المصرية الموجهة للعالم، باعتباره وسيلة ترويج سياحي مؤثرة، والحقيقة أنه كان كذلك، بل وساهم في احترام الإعلام وتقديره لشخص «حكيم» الذي يروّج لصورة أكثر تحضرًا للمطرب الشعبي المصري، حتى إن عِلية القوم والوزراء كانو يطلبونه كأول وأهم «نمرة» في أفراح أبنائهم وبناتهم، ولكن أكبر دليل لنجاح «حكيم» من وجهة نظري وقتها هو قبول والدي أن

أشـغل ألبـوم «نـار» بصـوت مرتفـع في سـيارته، بـل إنـه لم يخجـل مـن أن يحتفـظ بالشريـط ليسـمع مـوال «الصـبر» وهـو يدنـدن: «أنـا الـلي الدنيـا ظالمـاني وواخـداني في ليـل الأأأااه».

«نار»

غناء: حكيم

ألحان: عصام توفيق

كلمات: أمل الطائر

توزيع: حميد الشاعري

إنتاج: سونار

obeikan.com